

عمر الزهور

قصة قصيرة

بقلم همام محمد الجرف

كان له ابنة بعمر الزهور - ولكن قدّر صاحب الأمانة أن يأخذ أمانته - ونتيجة حمى غير متوقعة طرقت باب هذه الأسرة البسيطة السعيدة قد أودت بحياة هذه الطفلة الصغيرة التي كانت تملأ البيت سعادة وفرحاً بعد طول انتظار لقدمها ولكن وفجأة أصبحت من الماضي .

لقد تحول البيت السعيد إلى بيت كئيب وخيم الحزن عليه ، الأم في بكاء مستمر والأب قد امتنع عن الكلام ونسي وجهه الابتسامة .

ومن شدة إعياء الأم قد ضني جسدها النحيل ، وزاد همها هما مآل الأب الذي هجر الكلام والطعام ، وفي صباح يوم من أيام قليلة من وفاة الطفلة الصغيرة فقدت الأم الحياة وسلمت الروح إلى بارئها .

كل هذا في أيام معدودة؟؟ يكلم نفسه ويتحسر بعد عدة أيام سيأتي رمضان ومعه تأتي البشائر و كان يَحْسِبُ كيف سيوفر مبلغاً من المال كي يشتري لطفلته الوحيدة الثياب الجميلة ويأتي لها بالحلوى حتى لا تشعر بالحزن عندما ترى مثيلاًتها من الأطفال وهنَّ في أجمل حلَّة ، ولكن كل هذا ذهب في مهب الريح .

لقد كانت الصدمة غير متحملة من صاحب هذا البيت من سعادة وهناء إلى بؤس وشقاء ، ماذا قد حصل وكيف الحال قد تبدل - سبحانه الله - لم يصبر على هذا الحال ، والإيمان قد تزعزع في قلبه والشيطان وجد هذه النفس اليائسة مؤهلة لمعصية الله و أصبحت الوسوس تجيء وتروح والنفس ضعيفة ونَزَعَهُ من الشيطان نَزْعٌ - ولكن و أسفاً على حال هذا الأب المسكين الذي لم يستعيد بالله من هذا الشيطان ويصبر على ما أصابه -

فأصبح صدره ضيقاً حيناً يرى أن حياته لم يعد لها فائدة وحيناً يرى أن يرتكب معصية حتى ينسى مصائبه ، ماذا أيشرب الخمر التي تذهب بالعقل فينسى ، أم يرمي نفسه من حافة الجسر في ليلٍ مظلمٍ لا يراه فيه أحداً حتى لا ينقذه - لا حول ولا قوة إلا بالله -

وفي يوم قد ذهب عقله من شدة ما شرب من هذا الشراب الخبيث و نام ولم يدري ما آلت إليه حاله بعد أن كان رجلاً مستقيماً مطيعاً لله قنوعاً بحياته سعيداً ببساطتها .

هل هذه الحال التي كان يرجوها لنفسه فغداً بداية شهرٍ كان يتعبد الله فيه ويذكره قياماً وقعوداً حامداً إياه على هذه الطفلة التي جاءت إلى الدنيا بعد حين

ولكن يا للحسرة أين الزهرة التي كان يشم أريجها في كل فجر حين يستيقظ لصلاة الفجر ويقبل جبينها قبل أن يذهب إلى العمل .

لكن هذا البائس المخمور ما درى أن غداً رمضان وهو نائمٌ مستغرقٌ هاربٌ من بؤسٍ إلى بؤسٍ من حالٍ سيءٍ إلى أسوأ - وقد استمر على هذه الحال أيام - وفي هذه الليلة وفي منامه يرى حلماً قد أوقظه مسرعاً لقد رأى الطفلة الزهرة على حافةٍ وادٍ غريب الشكل تنبعث من حرارة ملتهبة وهو معلق على هذه الحافة وسيهوي من غير أن تستطيع الطفلة أن تفعل شيئاً ويرى ثعبان يحاول أن يلتهمه ثم تتحول هذه الطفلة إلى طير جميل يطير مبتعداً عن لظى نيران هذا الوادي والثعبان يحاول أن يلتهمه ويزداد الثعبان ضخامةً وقبحاً و إذا بشيخٍ عجوزٍ يرتدي ثوباً أبيضاً وله لحية بيضاء يحاول أن ينقذه ولكن دون جدوى حتى ينطق هذا الشيخ بعض الكلمات يوجهها للأب فيقول استعن بالله ولا تعجز استعن بالله ولا تعجز فيردد ما قد أملاه عليه هذا الشيخ ويقول يا رب استعنت بك فأعني ، فإذا بالثعبان يهوي في لظى النار ، ويخرج الأب من هذا الحال وينجو من هذا الكرب العظيم فيلتفت حوله حتى يشكر الشيخ الجليل لكنه لم يجده .

أصبح يمشي و هو هائم على وجهه و إذا بمنطقة حضراء جميلة كأنها الجنة ولكنه لا يستطيع أن يدخل إليها و إذ بطيور يطفرون من شجرة إلى شجرة يأكلون من ثمارها و يشربون من أنهارها ، ويلتفت هنا وهناك بغرابة وسعادة و إذ بطفلته بينهم تقترب منه ولكنه لا يستطيع الدخول إلى ذلك المكان وقد حال بينه وبين هذا المكان حائل ، فيقول لها ماذا جرى و من الشيخ الكهل و

أين هو و ما هذا الثعبان الضخم فأجابته والحزن يحرق قلبها على حال أبيها يا أبتى إن الثعبان هو حالك البائسة التي تمر بها مبتعداً عن الله عز وجل و الرجل الكهل هو بقايا ما في قلبك من إيمان .

ولما استعنت بالله قَوِيَّ إيمانك على عمل الشيطان فسقط الثعبان في النيران وَنَجَوْتَ ، و لن تستطيع الدخول إلى هنا يا أبتى وأنت على هذه الحال ثم تقول ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد: ١٦) حتى تلقاني هنا.

فإذا به يستيقظ هلعاً ويقول لقد آن نعم لقد آن ، فقام واغتسل وتوضأ وإذا بصوت المؤذن يرفع صوت الأذان عالياً الله أكبر الله أكبر ... حي على الصلاة .. حي على الفلاح .. أذن مؤذن الفجر مع أول يومٍ في رمضان ففي هذا الشهر جلاء الهم وشفاء الروح - شهر قد منَّ الله به على عباده بالرحمة والغفران والعتق من النار - فاستغفر ربه و أناب وذهب يصلي الفجر في جماعة وينهل من الطاعة و يستغفر ربه ويقرأ القرآن ، لعله يلقي هذه الطفلة العزيرة هي و أمها في هذه الجنة .

و أصبح من العباد الطائعين كما كانت عليه الحال قبل مصيبتة و في ليلة العيد أخذ بعض الألعاب التي كانت تلعب فيها عزيزته واشترى بعض الثياب البسيطة وذهب إلى ملجأ الأيتام ليفرح بهم من في عمر ابنته عمر الزهور وحمد الله على الهداية فماذا لو مات ولقي الله وهو على معصية في هذا الشهر وكلما تذكر حاله حمد الله كثير واستغفر الله والدموع في عينيه .

وكلما سنحت له الظروف يزور ملجأ الأيتام و يقبل الأطفال الصغار
 ويصطحب بعضهم في نزهة ، ويشترى لهم ما كانت تحبه ابنته العزيزة من ثمار
 وفواكه ، و أصبح عابداً طائعاً لله ناصحاً للناس واعظاً لهم مخففاً ما بهم من
 مصائب ذاكرأ لهم قصته الغريبة حتى يصبروا على ما أصابهم و يحتسبوا صبرهم
 عند الله مأجورين بذلك ، فهذا هو رمضان شهر التوبة والإنابة .

مستوحاة من قصة الإمام مالك ابن دينار

همام محمد الجرف
 غفر الله لي ولوالدي

homam_algerf@yahoo.com

